

حياة ديكارت

(١) الطفولة :

ولد رينيه ديكارت في ٣١ مارس من عام ١٥٩٦ بمدينة لاهاي بإقليم التورين Touraine بفرنسا على بعد نحو ٣٠٠ كيلو متراً من الجنوب الغربي لباريس وعلى بعد ٥٠ كيلو متراً من مدينة تور Tours عاصمة التورين . وأبوه يواقيم ديكارت كان مستشاراً بمحكمة بريتانى Bretagne الإقليم الواقع في الشمال الغربي من التورين . أما أمه فهي جان بورشار ، كانت بنت حاكم مقاطعة پواتييه في جنوب تور . ينتمي ديكارت إذن إلى أسر فرنسا البورجوازية ، إلى أسر نبلاء الثوب .

وقد ولد ليواقيم ديكارت من هذا الزواج صبي وبنت كل منهما أكبر من الفيلسوف . ثم ولد له ابن بعد ميلاد الأخير بأكثر من سنة ولم يعيش هذا الابن إلا أياماً بعد وفاة والدته .

فقد ديكارت والدته وهو لم يجاوز سنته الأولى بكثير كما فقد پسكال والدته وهو في سن الثالثة . إلا أنه لم يكن لموت والدته نفس الآثار التي كانت لوفاة والدته پسكال ، لعدة أسباب نعرف منها واحداً على الأقل وهو أن والد ديكارت جعل له مرضعة عنيت به أفضل العناية . وبقي ديكارت مخلصاً لها طول حياته . ويبدو أن ديكارت اهتم بالاحتفاظ بأخبار وفاة والدته ، بدليل أنه أشار إلى تلك الوفاة في خطاب كتبه للأميرة اليصابات وهو في سن الخمسين^(١) . ولكن لأمر ما أخطأ في ذكر تلك الأخبار وتفسيرها . فهو إذ يرشد صديقه الأميرة إلى علاج نفسي لمرض ألم بجسمها يذكر لها أنه اتبع نفس العلاج في

(١) راجع خطاب ديكارت إلى الأميرة اليصابات في مايو أو يونيو سنة ١٦٤٥ ل . ص ٩٤٨

سعال لازمه حتى سن العشرين وكان قد ورثه عن مرض رثوى ألم بوالدته أثناء حملها به وتوفيت عنه بعد ذلك الميلاد بأيام .

وغريب أن يقارن ديكارت مرض الأميرة بمرض والدته إلا أن تكون تلك المقارنة دليلاً على ما يكنه للأميرة من مودة عميقة . وأغرب من هذا أيضاً أن يخطئ على النحو المذكور بصدد موت والدته الذي أعقب ميلاده ، بأكثر من سنة والذي تلى مباشرة ميلاد ابن جديد لم يعيش طويلاً . وربما أُخفي أمر هذا الميلاد على فيلسوفنا كما أخفيت عليه تفاصيل ذلك الموت . ولعل ديكارت في اعتقاده هذا أراد أن يُحمل نفسه تبعة وفاة أمه ، ولعله أراد في نفس الوقت أن يجمع بين وفاته لأمه التي لم يعرفها ، وبين صداقته لتلك الأميرة التي حلت في نفسه محل الشقيقة والأم أيضاً .

ومهما كان من أمر هذه القصة فهي مثال طريف على بعض الأخطاء التاريخية التي عملت بصدد حياته ومؤلفاته .

ويقص علينا ديكارت في السنين الأخيرة من حياته شيئاً من ذكريات طفولته : يحدثنا أحياناً عن الريف الذي كان يعيش فيه ، وعن عادات المزارعين في ذلك الريف ، وعن جمال القرى الفرنسية التي لا يعلوها في نظره شيء مما زاره في العالم ، بل لاتعد لها تلك العزلة الهولندية التي اختارها لنفسه في العشرين سنة الأخيرة من حياته^(١) .

ويقص ديكارت على صديقه شانو حادثاً من أحداث طفولته يؤيد به رأيه في أن العاطفة وليدة أحداث الماضي البعيد وعاداته : أحب بنتاً من سنه كانت حواء ، ثم أصبح بعد ذلك ميالاً إلى كل فتاة أو امرأة حواء^(٢) .

وتلك القصة وتلك الذكريات التي رأى ديكارت تسجيلها فيما كتب لأصدقائه إنما هي دليل على أن الرجل لم ينبذ ماضيه ولم يكرهه . وإن أخطأ في تفاصيله

(١) راجع خطاه إلى براسيه (Brasset) في ١٦٤٩/٤/٢٣ ل . ١٠٧٧ .

(٢) راجع خطابه إلى شانو في ١٦٤٧/٨/٦ ل . ١٠٢٧ .

أو تفسيره ، وإن كان خياله هو الذى سجل ذلك الماضى فلقد كان خيالاً ساراً محبوباً لنفسه .

(٢) سنى الدراسة :

وإذا انتقلنا من تلك القصص عن طفولة ديكارت إلى سنى مدرسته وجدنا هنا أيضاً صعوبة كبرى فى ذكر وقائع دقيقة خاصة بحياة الفيلسوف . وهناك اختلاف حتى بصدد ميعاد تاريخ دخوله المدرسة . فأن مؤرخه باييه Baillet يذكر أنه دخل مدرسة لافيلش La Flèche للآباء اليسوعيين فى إبريل عام ١٦٠٤^(١) أى بعد أشهر قلائل من افتتاح تلك المدرسة . ولكن الدقة التاريخية تجعل أحدث مؤرخى ديكارت يسجلون دخوله المدرسة فى عام ١٦٠٦^(٢) . وما يؤيد هذا الرأى الأخير أن خروجه من المدرسة كان فى عام ١٦١٤ على وجه التأكيد ، ولم يكن من المعقول أن يبقى بها أكثر من ثمانى سنوات ، نظراً للمرحلة الدراسية التى شرع عندها ، ولعدم احتمال رسوبه ، أو إعادته لسنة من السنوات لاسيما أن مؤرخيه لم يذكروا تعطل دراسته مدة سنة كاملة لسبب من الأسباب .

وعن الدراسة وبرنامجه ومراحلها ومدى إفادة ديكارت منها وفكرته عنها لدينا نص «المقال عن المنهج»^(٣) يبدو فيه ديكارت صريحاً واضحاً كل الوضوح . غير أن هذا النص لم يكتب إلا فى عام ١٦٣٧ أى نحو ربع قرن تقريباً من تاريخ خروجه من المدرسة . ولم يكن ديكارت بطبعه مؤرخاً لأحداث العالم ولا لأحداثه الشخصية . ولم يكن «المقال عن المنهج» فى نظره سجلاً تاريخياً ؛ إنما كان قبل كل شىء تعبيراً عن حكمه على الثقافة العقلية بوجه عام ، وعلى الثقافة التى تلقاها هو بوجه خاص . ويبدو واضحاً من نص «المقال» وأسلوبه ،

(١) أدريان باييه : *La Vie de Monsieur Descartes* (باريس ١٦٩١) المجلد الأول

١٦ - ١٩ .

(٢) راجع ألكيه : ديكارت (باريس ١٩٥٦) ص ١٦ .

(٣) ل . ٩٣ - ٩٧ .

أن مراحل تلك الثقافة كانت في نظر ديكرت نماذج لها قيمتها الدائمة ، وإن لزم لإحلال أخرى محل بعضها على الأقل .

وما لا شك فيه أن ديكرت حكم على الثقافة التي تلقاها بالمدرسة ، وأن إشارته إلى مراحلها ، وإن لم تكن دقيقة من الناحية التاريخية ، لم تكن خيالية ؛ ويمكن الاستعانة بها على تكوين فكرة عن الثقافة التي تلقاها ديكرت بمدرسة لا فليش لليسوعيين وعن مدى إفادته منها . ولم تتغير الثقافة في مدارس اليسوعيين في ناحيتها الأدبية حتى اليوم ؛ وعلى أسسها قام الأدب الفرنسي الكلاسي : وعنهما صدر أسلوب اللغة والإنشاء والتأليف الفرنسي حتى اليوم . وتقوم تلك الثقافة في مرحلتين : الأولى أدبية لغوية ، هي دراسة الكتاب اليونان والرومان القدماء في لغتهم الأصلية . والثانية هي مرحلة الدراسة العقلية البحتة التي تقوم أغلبيتها في مواد الفلسفة ، وأقليتها في العلم الرياضي .

وتنقسم المرحلة الأولى ذاتها باعتبار سن الطالب ومقدار تحصيله ومرتبة نضوجه إلى فترتين . فهو يدرس أولاً لليونان والرومان قصصهم وتاريخهم ، ويستمر في هذه الدراسة مدة سنوات ثلاث على الأكثر ؛ ثم ينتقل بعدها إلى فترة جديدة لا تزيد هي الأخرى على ثلاث سنوات ، يدرس أثناءها خطب القدماء وشعرهم .

وعندما يرقى إلى المرحلة الثانية التي تستمر سنتين يدرس في الأولى المنطق مع الرياضيات وفي الثانية الأخلاق مع الطبيعة وما بعد الطبيعة .

ولا يختلف وصف ديكرت في « المقال » عن البرنامج الذي ذكرناه : يبدأ بالقصص والتاريخ ثم ينتقل إلى الشعر والخطابة ، وينتهي بالرياضيات والفلسفة . أما حكمه على تلك الثقافة فلننظر له بعين الحذر : فقد كان من الممكن أن يكون مختلفاً لوجاء بعد نهاية تلك الدراسة فوراً . ولكنه مرتبط في صورته الفعلية بما أراده ديكرت من الفلسفة والعلم والثقافة بوجه عام بعد السنوات الطويلة التي أعقبت خروجه من المدرسة .

والحق أن ديكرت لا يقصد نقداً شديداً ، بكلامه على الأقل عن مراحل الثقافة الأدبية. فمن القصص والتاريخ القديم يذكر أنه درس ذلك دراسة كافية^(١). أما عن الشعر والخطابة فهو لا ينكر جمالهما وروعتهما وأثرهما في حياة النفس^(٢). وكان تدريس اليسوعيين لتلك المواد في مدارسهم بفرنسا يفوق أى تدريس لها في العالم الأوربي كله^(٣). فعلاوة على الدقة في فهم النصوص القديمة لغة ونحواً وأدباً امتاز هذا التدريس بتوجيه الطلاب نحو الأساليب اللازمة في التعبير الشفوي وفي الكتابة من ناحية ، وبتوجيه عقولهم وخلقهم وطباعهم وساكهم الخارجى من ناحية أخرى . ويبدو هذا التوجيه واضحاً في أن الطالب لا يطالع النصوص القديمة بروتها أو في ثوبها الكامل ، بل في مختارات منها تعمل له خصيصاً وتناسب سنه ، والمجتمع الذى يعيش فيه ، والدين الذى ينتمى إليه . وتدرس اللغات القديمة تدريساً موجّه من الناحية الأدبية أولاً ، ثم من الناحية المعنوية الروحية ثانياً . وأثر دراسة الأدب اليوناني واضح في تنمية الخيال الأدبي . أما أثر الأدب اللاتيني فهو واضح في ضبط أسلوب التعبير وإخضاعه للدقة اللاتينية التى تكاد تحاكي في ميدان الأدب واللغة دقة الجبر والمهندسة أو دقة القانون الرومانى ذاته .

ولا يزيد اليسوعيون في الناحية الأدبية على ما في الأصول ذاتها وما يُستمد منها إلا أن يوجهوا الخيال إلى مثال العظمة والقوة في القصص والأدب ، وإلى ما كان مضبوطاً منتظماً في الأساليب . وعلى ذلك يكون مبدأ الأدب الكلاسي ومثاله الأعلى ، كما يفهمه اليسوعيون ، اتحاداً العظمة بالنظام ، والقوة بقواعد العقل . أما من الناحية المعنوية فكان تصدهم تربية النفس على الشجاعة من ناحية — وأبطال اليونان والرومان نماذج واضحة لها — وعلى الطاعة من ناحية أخرى ، وأسلوب

(١) المقال عن المنهج ل . ٩٥ .

(٢) المقال عن المنهج ل . ٩٤ .

(٣) المقال عن المنهج ل . ٩٤ .

الرومان في الحكم والحرب وفي التأليف أيضاً أنموذج حي على تلك الطاعة .
إلا أن الشجاعة من ناحية ، والطاعة من ناحية أخرى ، يقصدان لأن
فيهما تربية الإرادة ، وهى هدف اليسوعيين بوجه عام . لذلك لا يمكننا أن
نفصل بين تثقيفهم للذوق الأدبي وبين توجيههم للسلوك . وكان اليسوعيون في
الناحية الأخيرة متشددين لكن في اعتدال . فكان تلميذهم مهذباً ، لا يرفع
صوته كثيراً ، ولا يفرط في الكلام ، ولا يخرج على نظام المدرسة ، يُعوّد الطاعة ،
لكن في جو من الحرية الكاملة .

وإن فهمنا الغاية النهائية من تربية فضيلتي الشجاعة والطاعة في الفرد فهمنا
أن يكون التوجيه معنوياً خلقياً قبل كل شيء ، بل أن يكون دينياً أيضاً ،
وسياسياً إلى حد ما ؛ أن يكون محاولة في التوفيق بين أدب وأخلاق اليونان والرومان ،
وبين ما تفرضه علينا الحكومة والدين من واجبات وقواعد . وعندئذ تظهر الثقافة
الأدبية في كتب اليونان والرومان توجيهاً نحو طاعة الملك والخضوع لله وكنيسته .
ونرى أولى قواعد الأخلاق في « المقال » تنص على « أن يخضع الفيلسوف لتشريع
بلده وتقاليده وأن يبقى على الدين الذي أنعم الله عليه به »^(١).

وطبيعى بعد كل ما ذكرنا أن يكون ديكاكارت ، على رأس رجال الأدب
الفرنسي في القرن السابع عشر ، محافظاً ، متبعاً لما يرى من قواعد ، لكن في حرية .
فلم يطالبه معلموه بأكثر من ذلك ، بل لم يعلموه شيئاً غير ذلك .

هذا بوجه عام ، موقفه من ثقافتهم الأدبية ومبلغ تأثيرها فيه — أما نقده
للثقافة العقلية في ناحيتها الرياضية والفلسفية ، فقد كان كما هو معروف لاذعاً
شديداً ، إلا أنه ينبغي لتقدير قيمته أن نعرف ما تعلمه من معلميه في هاتين الناحيتين
بوجه تقريبي على الأقل .

أما الرياضة فقد درسها على أفضل معلميها وطالع معهم كتاب كلافيوس

Clavius اليسوعي وهو عمدة الجبر في ذلك الوقت . درس الجبر إذن علاوة على فروع الرياضيات التقليدية من هندسة وحساب وفلك وموسيقى . وتدل إشارات ديكرات إلى تلك الدراسة على أن إلمامه أثناءها بالعلم الرياضي كان كافياً ، واكتمل فوق ذلك بتطبيقات عملية سواء في ميدان مساحة الأرض أو في الصناعات الميكانيكية المعروفة .

اعترف بالقيمة النظرية للعلم الرياضي الذي تلقاه عن اليسوعيين ، ولكنه عاب عليه ضيق تطبيقاته^(١) . وسنرى مباشرة معنى هذا النقد .

لنتظر إلى نقده للدروس الفلسفية التي تلقاها بلافليش .

ولعل تلك الدروس لم تعد أن تكون ملخصات للمذهب الذي اتبعه القديس توما الأكويني والذي أول فيه فلسفة أرسطو تأويلاً مسيحياً . ومعروف أن الكنيسة الكاثوليكية في مجمع ترنت Trente قد أوصت المدارس والجامعات باتباع ذلك المذهب في تدريس الفلسفة واللاهوت . إلا أنه يجب علينا أن نأخذ هنا باعتبارين .

أولهما - أن اليسوعيين لم يفرضوا على طلاب مدارسهم مطالعة مؤلفات أرسطو أو القديس توما في نصها بدليل أن من يقرأ فلسفة ديكرات في النواحي التي يبدو فيها قريباً إلى المدرسين لا يلقى فيها أثراً للفلسفة الأرسطية ، كما أولها القديس توما . والأغلب أن اليسوعيين لم يهتموا بمباحث أرسطو والأكويني في التجربة وعلاقتها بالوجود ، أو في العقل الإنساني وعلاقته بالحس ، أو أخيراً في الوجود ذاته وعلاقته بمبدئه الأول . والأغلب أنهم اقتصروا بإرجاع المذهب الأرسطي الأكويني إلى بعض معانٍ فلسفية رئيسية ، كمعاني الجوهر والصورة ، والمادة والطبيعة ، وأنواع العلل المختلفة ، وأنواع الحركات ، كما نص على ذلك أرسطو في الطبيعة وفيما بعد الطبيعة^(٢) .

(١) المقال ل . ٩٥ - ٩٦ .

(٢) راجع في هذا كتاب ألكيه : الاكتشاف الميتافيزيقي للإنسان عند ديكرات ٢٦ - ٣٦ .

ورأيُنَا أن المذهب التوماوي الأصيل قد فقد عندهم روحه وحياته . ولا أدل على ذلك من أن ديكارت أراد في بداية الأمر أن ينشر كتاب « مبادئ الفلسفة »^(١) وأن يقرن فيه كل فقره بفقرة مختارة من مؤلف فلسفي مدرسي معروف ، وذلك ليبين امتياز فلسفته على الفلسفة المدرسية^(٢) . وكأن الفلسفة المدرسية قد رجعت في نظره إلى عدة بنود أو مواد تعلم وتحفظ ، لا إلى حياة العقل ذاته ، كما كانت عند القديس توما الأكويني .

والاعتبار الثاني — هو أن ديكارت في « المقال عن المنهج » ، وفي نقده السريع للفلسفة التي تعلمها ، لم يشر لا إلى أرسطو ولا إلى توما ولا إلى أي نظرية واضحة متكاملة استخلصها من دروس الفلسفة . وتفسير ذلك واضح وهو أن اليسوعيين كانوا قبل كل شيء ملفقين في الفلسفة يجمعون فيها بين أشياء بعضها صادر عن توما والأخرى عن دانز سكوت^(٣) أو غيرها من المدرسين ، كما يتبين من مطالعة كتب معلمهم الأول سواريز^(٤) Suarez وانتقد ديكارت فلسفة معلميه بجرة قلم سريعة ، فعاب عليها قبل كل شيء ، أنها جدل ونقاش مستمران بين نظريات مختلفة ، لا يمكن أن تكون كلها صحيحة ، في وقت واحد ، في موضوع واحد ، وأنها على أفضل تقدير محاولة ترجيع نظرية على أخرى ، من شأنها ترك العقل حراً ، يختار في الميدان النظري ما يروقه دون أن يكون على يقين في شيء . وتصبح الفلسفة عندئذ مدرسة شك ، قبل أن تكون مدرسة يقين وعلم^(٥) .

أما في ميدان الفلسفة العملية أو الأخلاق فيبدو أن الدروس اقتصرت على

(١) الذي نشر في عام ١٦٤٤ .

(٢) راجع خطابه إلى مرسين (Mersenne) في ١١/١١/١٦٤٠ (أ - م المجلد الرابع

٢٠١ - ٢٠٢) .

(٣) عالم لاهوتي إنجليزي وراهب فرانيسكاني عاش من سنة ١٢٧٠ إلى سنة ١٣٠٨ .

(٤) عالم لاهوتي إسباني ويسوعي ، عاش من سنة ١٥٤٨ إلى سنة ١٦١٧ .

(٥) المقال ل ٩٦

مطالعات بليغة مختارة من كتب الرواقيين^(١) دون أن تكون لتلك المطالعات ولتعلق المعلمين عليها أى علاقة بالحياة العملية التى يريد ديكارت أن يختط طريقه فيها بثبات وحزم كاملين .

ولربما وجب لغاية فهم النقد الديكارتي للفلسفة التى تعلمها أن نضم إلى ذلك النقد نقده للرياضيات ، وأن ننظر بوجه عام فى نقده للثقافة العقلية التى تلقاها . فعيب العلم الرياضى الذى درسه ، هو أنه لا يمكن دارسه من تطبيق عام شامل فى جميع أوجه الحياة والعمل ، مما يدل على أن هذا العلم كان محدوداً ضيقاً . وعيب الفلسفة أن لا وسيلة فيها تجنب الإنسان الخطأ ولا قاعدة يثبت أقدامه فى الحياة عليها . وديكارت تواق كما يقول إلى « أن يميز الصحة من الخطأ ليرى بوضوح ، ويسير فى ثبات^(٢) » .

وعلى ذلك كان العيب الجوهرى لتلك الثقافة العقلية فى مراحلها العليا أنها لم تكن حكمة بالمعنى الصحيح . فاليقين معدوم فى الناحية النظرية ، والتطبيق محدود ضيق كل الضيق . أما الفلسفة الحققة فهى بحث عن الحكمة ، ومن شأن الحكمة أن تكون نوراً للإنسان يقوده فى الحياة .

نعم إن ديكارت فى وقت خروجه من مدرسة لافليش ، لم يصرح بالنقد الأساسى الذى أشار إليه فى « المقال » بعد ذلك الوقت بربع قرن . ولكن الإشارة تحمل شيئاً من ذكرى خيبة الأمل التى شعر بها عند خروجه من المدرسة .

إلا أنه لم يمتنع حتى فى أوقات كان يندد فيها بالعلم والفلسفة المدرسية من الاعتراف بأنه تلى عن اليسوعيين أفضل ثقافة يمكن لشاب أن يتلقاها^(٣) ،

(١) المقال ل . ٩٦ .

(٢) المقال ل . ٩٦ .

(٣) ل . ٩٤ .

وبأنه مدين لأساتذته بيلدور تفكيره^(١) ، بل من أن ينصح صديقاً له بإرسال ابنه إلى مدارس اليسوعيين^(٢) .

ولكن كيف له أن يفعل ذلك إن لم يكن قد اقتنع هو شخصياً بقيمة تلك الثقافة ؟

ولو تساءلنا عما يمكن استخلاصه من كلام ديكرت عن دراسته ودينه لمعلميه وجب القول أنه تعلم منهم أمرين : أولهما أن التفكير خاضع لقواعد ونظام ؛ والثاني أن العمل جوهرى فى الحياة الإنسانية ، وأنه لاشك أهم من التفكير النظرى البحث ومن التفلسف . وهذان الأمران : النظام من ناحية ، والروح العملية من ناحية أخرى ، وفيهما كما سنرى جوهر منهج ديكرت وأخلاقه المؤقتة ، هما فى نهاية الأمر عمادا للتعليم اليسوعى .

ولذلك فإننا نعبّر عن دين ديكرت لمعلميه تعبيراً كاملاً ، لو أننا أضفنا ، إلى دراساته الأدبية والفلسفية ، التربية الدينية التى تلقاها عنهم . وإشارات ديكرت فى « المقال » إلى تلك التربية موجزة كل الإيجاز ولكنها واضحة . فهو قد تعلم « أن الطريق إلى النعيم مفتوح للجهلاء والعلماء معاً ، وأن حقائق الوحي إذ تجاوزت أفهامنا استحالت إخضاعها لتفكيرنا واستدلالاتنا^(٣) . »

وهذه الإشارة ذاتها ترجع بنا إلى التربية اليسوعية وأساسها الدينى عند منشئ الجماعة اليسوعية ، عند القديس أغناطيوس اللوايولى : ذلك الأساس هو أن « الإنسان مخلوق » ؛ وعاجز إذن عن فهم أسرار الله وقدرته ، وأنه مع ذلك كائن حر يستطيع ، بعمله تمجيد الله وخدمته .

والمغزى التربوى لهذا الموقف المزدوج أنه لابد من ترويض الطالب على

(١) فى خطاب للأب فورنيه (Fournet) أحد معلميه القدماء بلافليش بتاريخ ١٤/٦/١٦٣٧ وذلك بمناسبة إهداء ديكرت « المقال » له (راجع أ - م المجلد الأول ٣٧٤ - ٣٧٥) .

(٢) راجع خطاباً له فى ١٢/٩/١٦٣٨ (أ - ت . المجلد الثانى ٣٧٨) .

(٣) المقال : ل ٩٦ .

الطاعة والنظام ، كما أنه لابد من ترويضه على العمل وتحمل التبعات . وإن كان الأمر كذلك كانت التربية الأدبية والتربية الفلسفية كما ذكرناها تابعين للتربية الروحية ، خاضعين لمبدئها . ولذلك وجب ألا نهمل الإشارة هنا إلى منزلة « التمارين الروحية » ^(١) من حياة تلميذ اليسوعيين : فالمعروف أن هناك أوقاتاً ، في كل سنة مدرسية ، تخصص للتمارين الروحية ، لا يتبع التلاميذ أثناءها دروسهم المعتادة ، إنما ينصرفون فيها إلى متابعة الشعائر الدينية والوعظ والإرشاد . ويرجع التلاميذ من حين لآخر إلى مرشد من الآباء ، ويختلون أيضاً من حين لآخر ، يراجعون أنفسهم في مدى انحرافهم عن الدين وطاعة الرؤساء ، وفي مدى ما أحرزوه من تقدم لإرادتهم وتفكيرهم حسب القواعد التي خبروا تأثيرها . وسيكون لتلك التمارين الروحية صداها العظيم في نشأة المنهج الديكارتي . نقول إذن في النهاية أنه بالرغم مما وجهه ديكارت من لوم ونقد لأساتذته ، فهو مع ذلك أهل لأن يتعرف فيهم معلميه الحقيقيين .

(ح) أحلام ديكارت :

تخرج رينيه ديكارت في مدرسة لافليش في صيف عام ١٦١٤ أى بعد أن جاوز الثامنة عشر بقليل ثم حصل من جامعة پواتيه في عام ١٦١٦ على درجتي البكالوريوس والليسانس في الحقوق ، وليس هناك تفاوت كبير بينهما ، سوى في أن الثانية تسمح لصاحبها بممارسة مهنة المحاماة بعد مدة معينة من التمرين . وليس لدينا علم أكيد بأن ديكارت استمع بانتظام لمحاضرات الجامعة في القانون ، والأغلب أنه حصل على معلوماته في الموضوع أثناء السنتين الأخيرتين لدراسته بلافليش حيث كان القانون والطب من الموضوعات التي يمكن اختيارها علاوة على الفلسفة والعلوم الرياضية .

(١) Exercices Spirituels للقديس أغناطيوس مؤسس الجمعية اليسوعية . وهي التمارين التي

رأى أن يقوم بها كل من أراد التقدم في الحياة الروحية . راجع ما ذكرناه سابقاً ٤ - ٥ . ثم

سجل ديكارت اسمه في سجل المحامين منذ سنة تخرجه ولم يترافع أبداً .
وفكر في عام ١٦٢٢ في شراء وظيفة قضائية وذلك عندما حصل على استقلاله
المالى ، ثم نبذ تلك الفكرة بعد حين .

كان ديكارت شاباً اجتماعياً ، على الأقل مدة ما بعد تخرجه . وكان يجيد
الرقص واللعب بالسيف . ثم اشترى له أبوه وظيفة ضابط ، على عادة نبلاء
ذلك الوقت ؛ وأصبح ديكارت في عام ١٦١٨ ضابطاً بجيش مورييس دى ناسو
Maurice de Nassau الهولندى وحليف فرنسا . وعاش ديكارت بمدينة بريدا
Breda بهولندا مدة ما ، وتعرف أثناءها بإسحق بيكمان Isaac Beeckman ،
الذى كان له أعظم الأثر في توجيهه توجيهاً علمياً . وبيكمان أكبر من ديكارت
بثمان سنوات ، وكان في ذلك الوقت وكيل مدرسة ثانوية ، يعنى خارج وظيفته
هذه ، بالرياضيات والعلوم ويعلم الطبيعة بنوع خاص ، متجهاً في بحوثه إلى
تأويل الظواهر الطبيعية تأويلاً رياضياً ميكانيكياً عاماً ، قريباً إلى ذلك الذى
اتخذه جاليليو في نفس الوقت تقريباً . ولا شك في أن ديكارت تعلم منه الكثير أثناء
إقامته بمدينة بريدا . وبدليل تلك الكلمات التى كتبها له في ذلك الوقت : « إنك
في الحقيقة الإنسان الوحيد الذى أيقظنى من خمولى ، وأعاد إلى نفسى علماً
كاد ينمحي من ذاكرتى ، وأرجع عقلى إلى جليل الأعمال بعد أن كان قد نبذها »^(١) .
وبدليل أن ديكارت أهدى إليه أول كتاب ألفه وعنوانه « ملخص الموسيقى » راجياً
منه في الإهداء أن يحتفظ بالكتاب لنفسه ما دام هو بالفعل صاحبه وملهمه^(٢) .
ويمكننا أن نتخيل ديكارت عند وصوله إلى بريدا عاشئاً في عزلة كاملة ثم هائماً
بين عزلته هذه وبحوث علمية لا طائلة تحتملها إلى أن التقى ببيكمان الذى وجهه إلى
الدراسة النافعة .

(١) راجع في هذا مؤلفات ديكارت الكاملة (أ. - ت) المجلد العاشر ص ٤٦ .

(٢) راجع كتاب ك. س. رورييه (Cornelia Serrurier) : ديكارت (استردام ١٩٥١) .

ثم اضطر بيكمان إلى السفر مدة ما إلى المانيا . فضاقت ديكارت بحياته ببريدا وسافرا هو أيضاً إلى ألمانيا ، وانضم في أبريل عام ١٨١٩ إلى جيش آخر ، حليف لفرنسا في ذلك الوقت ، وهو جيش أمبراطور ألمانيا .

ولكنه اتخذ في سفره هذا طريقاً طويلاً . فأبحر إلى الدانمارك ، ووصل بعد مدة ما إلى أواسط ألمانيا الغربية ، واشترك في حفلات تنصيب الأمبراطور التي قامت بين يوليوس وسبتمبر سنة ١٦١٩ . ثم جال بعض الوقت في تلك الأنحاء حتى اختار لنفسه ، في أواخر أكتوبر ، مسكناً بمكان ما بالقرب من مدينة أولم Ulm . ولم يكن هذا المسكن إلا حجرة واحدة مدفأة أشد التدفئة ، عاش فيها فيلسوفنا مدة لا نستطيع تقديرها . إنما لا تقل عن شهرين . واتخذ أثناء ذلك الوقت منزلاً في الحياة خاصاً به : كان لا ينام إلا عند ما يتقدم به الليل . ويبقى في سريره طول الصباح . ولا يترك حجرته إلا بعد الظهر يخرج لرحلة طويلة في الغابات المجاورة . إما على حصانه أو على قدميه .

وقد سجل بابه Bailet مؤرخ ديكارت . نقلاً عن الفيلسوف . شيئاً من أحداث ليلة ١١ نوفمبر سنة ١٦١٩ . نقصد أحلامه بهذه الحجرة ، ومشروعاته العلمية .

ولنورد هذه الأحلام وهي ثلاثة ، ولنتكلم بايجاز عن علاقتها بتلك المشروعات .

كان ديكارت في الحلم الأول يسير في الطريق . فأحس فجأة أثناء سيره بفرع وارتعاب شديدين أفقده توازنه ، فحاول مُسرعاً استرجاع هذا التوازن . وعندئذ فاجأته ريح عنيفة قلبت جسمه رأساً على عقب ، فجرى في شيء من التعثر إلى مدرسته ليصلي في كنيسها . ولكنه تذكر عند دخوله إليها ، أنه لمح أثناء جريه في الطريق رجلاً كان يعرفه ، فخرج فوراً من الكنيسة

(١) راجع بابه : حياة ديكارت : الجزء الأول ٨١ - ٨٦ ثم كتاب ك . سروريه

Cornelia Serrurier : ديكارت ١٤ - ٢٢ .

ليلحق به ويحييه . ولكن ريحاً أقوى من السابقة دفعت بجسمه إلى جدار الكنيسة .
وعندئذ جاءه رجل آخر وطلب منه في أدب ولطف أن يقابل صديقاً يريد
إهداءه شيئاً ثميناً ؛ فظن ديكارت أن الهدية لم تكن إلا شامة مستوردة من
الخارج . - وكان ديكارت ، طول الحلم ، متعجباً من احتفاظ جميع الناس
بتوازنهم . إلا هو . وتيقظ في النهاية متيقناً من أنه ألعوبة روح خبيث .

وعندئذ دار في سريره ورقد على جانبه الأيمن ورفع إلى الله صلاة قصيرة .
ثم نام فقوحي مباشرة بحلم ثان أعنف من الأول وإن كان أقصر منه . سمع
قصف الرعد ، وخيل إليه أن عينيه مفتوحتان وأنه يرى غرفته تلمع كلها
بأشعة نور قوي ، ونيقظ بعد ذلك وفكر في هذه الرؤيا واطمأن إليها شيئاً ما .
ثم نام من جديد فحلم لثالث مرة حلماً ارتاح له ارتياحاً كاملاً : رأى على
منضدته كتابين أحدهما قاموس اغتبط له أشد الاغتياب والآخر مجموعة من
مختارات الأشعار تصفحها مباشرة فأعجب ببيت فيها إعجاباً قرر بعده أن يتخذ
البيت شعاراً لحياته في المستقبل وهو بيت لشاعر لاتيني اسمه اوزونيوس
Ausone يتساءل فيه : « أي طريق في الحياة أتبع ؟ » Quod vitae sectabor iter
وفي أثناء تصفحه هذا الكتاب جاءه شخص مجهول ، وقدم له قصيدة لنفس
الشاعر تبدأ بالكلمات « نعم أم لا ؟ » . وحديثه المجهول عن جمال القصيدة ،
فرد عليه ديكارت بأنه يعرفها ، وبأنها في كتاب المختارات الشعرية . وعندما حاول
العثور على تلك القصيدة في الكتاب لمح اختفاء القاموس . ولكنه رأى القاموس
بعد ذلك ، وقد تغير شكله ومحتواه . وعمل ديكارت على تصفح المختارات فلاحظ
في إعجاب صوراً جميلة تملأ الكتاب . ثم اختفى الشخص المجهول واختفت
الكتب - وبقى ديكارت في نومه محاولاً أثناءه تفهم معنى هذه الرؤى . فاعتقد أن
القاموس رمز إلى جميع العلوم في اتحادها ، وأن المختارات الشعرية رمز إلى
اتحاد الفلسفة بالحكمة . ولم يتردد أثناء نومه في الاعتقاد بأن إلهام الشعراء منبع
لحكمة تفوق تفكير الفلاسفة .

ثم أفاق ديكارت من نومه مطمئناً إلى الحلم الثالث واثقاً بأن روح الله قد أرادت أن تكشف له كنوز العلم والحكمة بينما اعتبر الحلمين الأولين بمثابة إنذار نهائي له ضد ماضيه حتى اليوم .

ولا يسمح لنا المحال بتأويل عام لتلك الأحلام ، وقد ذهب في ذلك المؤرخون مذاهب شتى^(١) ، حتى التجأ بعضهم إلى فرويد نفسه الذى لم ير إمكان تفسير معين بالذات ما دامت الأحلام لشخص ليس على قيد الحياة .

ويكفي أن نرى في الحلمين الأولين تعبيراً عن قلق الفيلسوف وحيرته بين اتجاهات مختلفة ، قد تتخذها حياته . بين ماض أراد التحرر منه ، ومستقبل لم يعرف عنه شيئاً . ثم جاءت أشعة الضوء في نهاية الحلم الثانى إشارة إلى نقطة تحول في حياته ، ورمزاً إلى إرادة حاسمة عنده للتحرر من الماضى ، والتقدم إلى مستقبل نضوج وخصب . ثم جاء الحلم الثالث ممثلاً لوحدة فلسفية عليا فكر فيها ديكارت منذ التقى ببيكمان ، بل لعله فكر فيها تفكيراً غامضاً منذ السنين الأخيرة لدراسة بلافليش .

وقد سجل بأبيه مؤرخ ديكارت أن الفيلسوف اكتشف في تلك الليلة « أسس العلم العجيب »^(٢) . إلا أن البحوث التاريخية لا تبين أن ديكارت قام في ذلك الوقت ، أو بعده بقليل ، باكتشاف علمى معين ، أو أنه شرع في تأسيس فلسفة كاملة . وثابت أن ديكارت لم يكتشف في تلك الليلة الشهيرة مبادئ الهندسة التحليلية ، وأنه لم يبدأ بعدها مباشرة في تحرير كتاب « القواعد لتوجيه العقل » .

وثمة أمران يمكن تأكيدهما من الناحية التاريخية : الأول أن مخطوطات ديكارت في ذلك الوقت تدل على أنه كان بين موقفين عقليين : موقف هندسى

(١) راجع بنوع خاص : چاك ماريتان : حلم ديكارت Le Songe de Descartes باريس

عام ١٩٣٢ ؛ ومكسيم لروا : ديكارت أو الفيلسوف ذو القناع . باريس عام ١٩٣٩ .

(٢) راجع بابيه : حياة ديكارت الجزء الأول ص ٨١ .

ميكانيكى اتخذه بعد بيكمان وأدى به بعد سنين إلى تعميم المبدأ الآلى وإلى اتخاذ تفسير رياضى كامل فى الطبيعة: ثم موقف آخر غير واضح تماماً أشار فيه إلى وحدة الطبيعة وإلى الحب والإنسجام اللذين يقربان أجزاء الطبيعة فيما بينها . وقد نبذ ديكارت هذا الموقف الأخير حتى إننا لا نجد له أثراً فى مخطوطاته بعد ذلك أو فى مؤلفاته^(١) .

أما الأمر الثانى الذى يمكن تأكيده فهو عزم ديكارت الصادق على تخصيص حياته للتفكير ، بدليل اعتزاله وظيفته العسكرية . ثم رفضه بعد ذلك منصب القضاء الذى عرض عليه عندما استقل عن أسرته استقلالاً مالياً كاملاً ، فى عام ١٦٣٢ . ونعده أخيراً بالحج على أقدامه حتى دير العذراء بلوريت Notre Dame de Lorette بإيطاليا، ذلك الحج الذى سمع عنه منذ سنين تلمذته بلافليش ونذره للعذراء بعد ليلة ١٠ نوفمبر ١٦١٩

(د) سنوات العلم والتحصيل^(٢)

وإننا لا نعرف على وجه التدقيق كيف قضى ديكارت أوقاته بين عام ١٦١٩ وعام ١٦٢٢ عندما نلقاه فى هذا العام الأخير فى فرنسا مع أفراد أسرته ليحصل على نصيبه من ميراث والدته . وغاية ما يمكن أن نرويه هو أنه قام برحلة طويلة من جنوب غربى ألمانيا حيث كان فى نهاية عام ١٦١٩ إلى شالها وأبحر منها إلى هولندا حيث بقى مدة قصيرة . ثم أبحر من هولندا إلى فرنسا فى رحلة لا يمكن تحديد ميعادها بالضبط . إنما يحكى أن بحارة مركبه فى هذه الرحلة اعتزوا وقتله هو وخادمه وسلب ما معهما من أموال ومتاع . ولكنه علم بمكيدتهم فقام للتو شاهرأ سيفه عليهم . وعددهم لا يقل عن العشرين ، مهدداً أى واحد

(١) راجع فى ذلك ف . ألكيه: الاكتشاف الميتافيزيقى للإنسان عند ديكارت (باريس .

١٩٥٠) ٤٥ - ٤٦ وكتابه : ديكارت (باريس ١٩٥٦) ٢٠ - ٢١

(٢) وقد رأينا إختصار هذا الجزء من الحياة لمودتنا إليه فى كلامنا عن مراحل تأليف الفيلسوف

منهم يجرؤ على مهاجمته . فدعروا وتركوه لشأنه يتم رحلته . ويتزل من المركب في دنكرک .

ولا يمكن أيضاً أن نؤكد الكثير عن رحلته إلى إيطاليا ، وعما إذا كان قد حج إلى « لوريت » أم لا . وكل ما يعرف عن حياته بين نهاية عام ١٦٢٢ وعام ١٦٢٥ أنه سافر إلى إيطاليا بالفعل ، ثم رجع منها غير راض عن رحلته إلى تلك البلاد . ثم عاش من سنة ١٦٢٥ في فرنسا بين باريس والريف مدة ثلاث سنوات تقريباً تعرف أثناءها بجمهور من العلماء ورجال الدين أخصهم مراسله وصديقه فيما بعد الأب مرسين Mersenne ، والذي كان مدة عشرين سنة واسطة التعارف والتراسل بينه وبين علماء وفلاسفة ولاهوتي أوروبا . واتصل أيضاً أثناء إقامته هذه بعلماء طبيعيين ومهندسين ورجال كانوا يعنون بتطبيق العلم والرياضة في الصناعة ، وكان من بينهم صديقه فرييه Ferrier الذي عهد إليه ديكرت بصنع ما احتاج إليه من آلات لبحوثه العلمية والضوئية بنوع خاص .

وأهم أحداث حياته في ذلك الوقت الاجتماع الذي تم في خريف عام ١٦٢٧ عند القاصد الرسوليّ بباريس . وحضره ديكرت والكردينال دى بيرول Cardinal de Bérulle مؤسس جماعة الأوراتوار Oratoire الدينية ، وغيرهما من كبار العلماء والمفكرين ؛ واستمعوا إلى حديث رجل اسمه دى شانندو de Chandoux تكلم الرجل عن أسس العلم الذى يجب في نظره أن يحل محل العلم المدرسى . ولم يقنع الحاضرين بكلامه الذى جمع إلى الغموض إدعاءات غريبة بعيدة عن العلم كل البعد - . وهنا طلب الكردينال دى بيرول من ديكرت رأيه في الموضوع ، فأجاب هذا في حذر عظيم بادئاً بتفنيد إدعاءات الرجل . ثم أشار في اقتضاب إلى مبادئ أخرى تكفل للعلم استقلاله وتقدمه وخصبه ، وللدین جلاله وعظمته .

وإن لم تسجل لنا اعترافات ديكرت في الموضوع فالأغلب أنه لم يصرح

أثناء حديثه بأى نظرية ميثافيزيقية جديدة . إنما اكنفى بالكلام عن أمله فى قيام علم طبيعى ميكانيكى عام ، يستخدم الاستدلال الرياضى فى جميع نواحيه . والمعروف أنه زار الكردينال بعد هذا الاجتماع أكثر من مرة ، وحديثه عن آرائه ومشروعاته العلمية . ومن المحتمل أنه تعهد للكردينال بأن يعضى فى تلك المشروعات حتى نهايتها ، وأن ينتقل بعد ذلك إلى البحث عن فلسفة تكفل للعلم استقلاله وتعترف لله بمنزله وقدرته^(١) .

ولما نعرف أن ديكارت اعترم نهائياً تجنب الحياة الاجتماعية والاعتكاف الكامل وذلك منذ بداية عام ١٦٢٨ . قرر ترك فرنسا وأوصى أصدقاءه بالبحث عن منزل له بالريف الهولندى . وعندما تم له ذلك سافر إلى هولندا وعاش فى تلك البلاد فى عزلة تكاد تكون تامة حتى نهاية حياته تقريباً . ولم يكن يقيم ببلدة واحدة فى هولندا أو منزل مدة ما إلا وانتقل إلى مدينة جديدة أو منزل جديد بعيد عن المنزل السابق حتى لا يألف إلى الناس ولا يألفوا إليه . وكان لا يعطى عنوانه إلا لصديقه مرسين موصياً إياه بأن يرسل إليه خطابات لا فى منزله ، إنما فى منزل شخص آخر يتسلم ديكارت منه الخطابات تبعاً . وكان ديكارت يفضل الريف على المدن . إنما كان مع ذلك يتخذ مسكنه فى الريف غير بعيد عن مدينة من المدن حتى يستطيع شراء لوازم منزله أو معاملته العلمية .

وابتداً ديكارت حياته فى هولندا فى عام ١٦٢٩ فى مدينة فرينكر Frenecker وذلك بعد عدة تنقلات ورحلات بين هولندا وفرنسا . وسكن قصراً صغيراً بالقرب من أبواب المدينة حتى لا يكون بعيداً عن الريف . ثم انتسب إلى جامعتها حيث تابع فيها دروس علم الطبيعة وخاصة دروس علامة متخصص فى المجاهر . ثم ترك فرنكر فى نهاية هذا العام ، واتجه إلى امستردام حيث أقام بها إقامة شبه مستديمة إلى عام ١٦٣٥ ، مع تنقلات من منزل إلى آخر فى المدينة ، ورحلات تطول

(١) راجع بصد هذا الاجتماع بابه : حياة ديكارت المجلد الأول ١٦٠ - ١٦٦ . راجع أيضاً ألكيه : ديكارت ٢٢ - ٢٣ .

أو تقصر في بعض المدن الهولندية الأخرى .. فنعرف مثلاً أنه انتسب في عام ١٦٣١ إلى جامعة ليدن ، واتصل فيها بالرياضي والمستشرق جوليوس Golius الذي عرض عليه بعض مسائل هندسية ، لم يحلها المهندسون القدماء . فاهتدى ديكارت أثناء حلها إلى اكتشاف مبادئ الهندسة التحليلية . وتعرف ديكارت عن طريق جوليوس بقسطنطين هويجنز Constantin Huygens والد عالم الضوء الشهير كريستيان هويجنز . وكان الأب يشغل في ذلك الوقت منصباً هاماً في البلاط الهولندي كما كان علاوة على ذلك علامة في الطبيعة والرياضة مغرمًا بالفن والأدب والموسيقى .

وأنا نعرف أيضاً أنه استقر في عام ١٦٣٣ مدة ما بمدينة ديفنتر Deventer واتصل بهيلين هانس Hélène Hans التي ربما كانت في خدمته في ذلك الوقت ، وأنجب منها بنتاً سماها فرانسين Francine ، وفاءً لذكرى بلاده ووطنه . ولم يشر إلى تلك العلاقة إلا في النادر ، وإلا لأمور منها مثل إعداد إقامة لابنته أو إحضار مرضعة لها . ولم يهتم بهيلين ، إنما شغف بابنته شغفاً عظيماً ، وحزن على وفاتها ، وهي في سن الخامسة أشد الحزن .

ومن نهاية عام ١٦٣٣ إلى عام ١٦٣٥ استقر بامستردام واتخذ لنفسه في تلك المدينة أكثر من منزل . وسافر أثناء تلك الإقامة إلى بلاد الدانمارك في رحلة قصيرة . وفي نهاية عام ١٦٣٥ ، مكث باوترخت Utrecht بشمال هولندا . ورجع في عام ١٦٣٦ إلى أمستردام حيث عمل على إنهاء كتبه العلمية ، والمقال عن المنهج . وابتدأ من أوائل عام ١٦٣٧ بمباشرة طبع تلك الكتب .

وقد عمل منذ عام ١٦٢٩ في كتاب إنكسار الضوء Dioptrique ؛ ولعله انتهى من تحرير مسودة الكتاب في عام ١٦٣٢ . ثم عرض للبحث في نهاية عام ١٦٣١ في مسائل الهندسة الإغريقية ، فأنهى إلى اكتشاف الهندسة التحليلية في أوائل عام ١٦٣٢ . وفي هذا العام الأخير ، شرع في تأليف كتاب كامل في « العالم » درس فيه ، بعد الامتداد والحركة ، ظواهر الضوء بوجه عام .

وكان يعنى من عام ١٦٣١ بالتشريع ، فابتدأ فى سنة ١٦٣٣ جزءاً ثانياً للكتاب السابق ، سماه « كتاب الإنسان » *Traité de l'Homme* . وكاد ينتهى فى عام ١٦٣٣ من الكتاب كله عندما سمع بخبر إدانة الكنيسة الكاثوليكية لجاليليو لتقريره دوران الأرض . وكان قد وصل إلى نفس النتيجة فى كتابه السابق . وما سمع بخبر تلك الإدانة إلا وأعلن لأصدقائه عزمه على الامتناع عن نشر «العالم» وذلك لسببين رئيسيين : أولهما حبه للدعة ورغبته فى تجنب الاعتراض والنقد . والثانى اعتباره القضية العلمية السابقة وكافة قضايا العلم نتائج فروض واستدلالات فرضية ليس إلا .— ثم عمل بعد ذلك على إتمام بحوثه العلمية الأخرى ونشرها : فعلاوة على « انكسار الضوء » درس الظواهر الجوية وأخذ يؤلف فى الآثار العلوية *Météores* كتاباً صدر فى عام ١٦٣٧ مع « الهندسة » *Géométrie* ومع « انكسار الضوء » *Dioptrique* وأصدر مع هذه المقالات العلمية الثلاثة مقدمة لها فى تاريخ فكره وفى منهجه وتلك المقدمة هى « المقال عن المنهج » .

وأخذ يتلقى الرسائل من علماء يعرفهم وآخرين لا يعرفهم بصدد ما احتوته مؤلفاته السابقة هذه من آراء علمية جديدة . وتلقى أيضاً عدة خطابات أخرى بصدد ما احتوته صفحات « المقال عن المنهج » من نظريات فلسفية .
(هـ) التأليف الفلسفى .

ويبدو أن ديكارت أرضى نفسه ومراسليه فى المسائل العلمية . وكانت الخطابات الفلسفية بمثابة مشجع له على المضى فى البحث والتفكير الفلسفى . — حتى اعتزم ما بين عام ١٦٣٨ و ١٦٣٩ التفرغ للفلسفة تفرغاً كاملاً . فوجدته فى عام ١٦٣٨ معتكفاً ببلدة سانت پورت *Santport* بشمال هولندا حيث لم يلق إلا أشد المقربين إليه . وبقي فى تلك العزلة مدة سنتين تقريباً تخللتهما رحلات قصيرة إلى أمستردام أو اوترخت . وفى سبتمبر من عام ١٦٤٠ دعى على وجه الاستعجال لمرض ألم بابنته فرانسين فلم يحضر إلا لوفاتها . وكان عام ١٦٤٠ هذا من أقسى الأوقات عليه . شاهد فيه وفاة ابنته بعد وفاة أبيه .

وانتهى في عام ١٦٤١ إلى مؤلف فلسفي جامع عرضه عن طريق صديقه مرسين على بعض كبار الفلاسفة ورجال الدين فتلقى من بعضهم أسئلة واعتراضات عمل على نشرها في نهاية مؤلفه هذا مع إجاباته على تلك الاعتراضات . فخرج الكتاب في عام ١٦٤٢ تحت عنوان « تأملات في الفلسفة الأولى يُبرهن فيها . على وجود الله والتميز القائم بين النفس والجسم ، مضافاً إليه تلك الاعتراضات والإجابات » .

وفي نفس الوقت الذي انتهى فيه من كتاب « التأملات » فكر في تأليف كتاب جديد يعرض فيه فلسفته للمدارس آملاً أن تشجع تلك الفلسفة لابين العلماء وحدهم بل بين الطلاب كذلك ، وخاصة بين طلاب مدارس اليسوعيين ، أساتذته القدماء . ولكنه لم يلق منهم في ذلك أى تشجيع . وطلع الكتاب في عام ١٦٤٤ تحت عنوان « مبادئ الفلسفة » .

وأمر غريب أن يسعى ديكرت إلى الدعة والطمأنينة فتكون كتبه واتصالاته الفلسفية بمعاصريه وخاصة باليسوعيين والهولنديين فرصة نقاش وشجار لانهاية لهما . فبعد نقاش دام سنوات ولم ينته إلى نتيجة بينه وبين اليسوعيين ، هاجمه علماء اللاهوت بهولندا ورجال الجامعات وخاصة جامعة أوترخت وعرضوا بأرائه وبتلاميذه من العلماء والفلاسفة ، ثم هاجموا في حياته الشخصية . وبقى ديكرت سنوات يقند ادعاءات خصومه ، ويرد على نقدهم . ويدافع عن نفسه ، بعد هجومهم عليه من جديد ، ويدافع في ذات الوقت عن حرية الفكر والنشر والتعليم . لكن خصومه لم يهدأوا لحظة حتى اضطر ديكرت في نهاية الأمر إلى اللجوء إلى صديقه هويجنز Huygens وكان من رجال البلاط الملكي الهولندي ثم إلى سفير فرنسا نفسه لدى ذلك البلاط .

وضاق بحياته في هولندا لولا صداقة الأميرة اليصابات له وخطاباتها في شتى الموضوعات وخاصة في الموضوعات الأخلاقية ، وابتدأ ديكرت حوالى عام ١٦٤٥ في معالجة المسائل الإنسانية بوجه عام ، والأخلاقية بوجه خاص . فكتب فيها

الخطابات تلو الخطابات إلى الأميرة اليصابات يرد على أسئلتها ويوجه تفكيرها وحياتها . وخرج في عام ١٦٤٩ ، أى سنة قبل وفاته ، بكتاب في « انفعالات النفس » .

وسافر ديكارت إلى بلاده مرات ثلاث قبل وفاته : مرة أولى في عام ١٦٤٤ ، راجع أثناءها ترجمة لاتينية للمقال عن المنهج . ثم عاد مرة ثانية في عام ١٦٤٧ ، فالتقى بيسكال وتناقش معه في موضوع الحلاء . — ثم رجع إلى باريس مرة أخيرة في عام ١٦٤٨ ، بدعوة خاصة من أصدقائه ومن الحكومة الفرنسية ، فوجد البلاد في ثورة أهلية ، وأصدقاءه منشغلين عنه . فعاد إلى هولندا خائب الأمل .

وقد تعرف أثناء زيارته إلى فرنسا بشانو Chanut ، الذى عين فيما بعد سفيراً لدى الملكة كريستينا ملكة السويد ، والذى أصبح واسطة التعارف بين الملكة وديكارت . وراسل ديكارت الملكة بعد الأميرة اليصابات في المسائل الأخلاقية . وتردد في قبول الدعوة لزيارة السويد ، والإقامة بها مستشاراً للملكة واستاذاً لها في العلم والفلسفة . تردد طويلاً ، ولم يسعه الرفض في نهاية الأمر . ووصل في خريف ١٦٤٩ إلى السويد ، حيث وجد البرد شديداً . وكان عليه أن يخرج في الفجر لإلقاء دروسه على الملكة ، وهو لم يعتد شيئاً من ذلك طول حياته كلها . فأصيب في يناير من عام ١٦٥٠ بنزلة رئوية شديدة ، اضطرت به إلى الفراش أياماً ، لم يفق أثناءها من مرضه إلا ليعرف قرب نهايته . وقضى ديكارت هادئاً ، واثقاً بالله . وكانت وفاته في اليوم الحادى عشر من شهر فبراير سنة ١٦٥٠ .

شخصية ديكارت :

قد تؤدي رواية الأحداث في حياة ديكارت إلى عدم التثبت من شخصية الرجل وطباعه . لذلك يجمل بنا أن نكوّن فكرة جامعة عن تلك الشخصية خلال أفعاله وبحوثه ، وذلك قبل عرض منظم لتأليفه .

ومن العسير الاعتماد في تكوين هذه الفكرة على طفولة ديكارت أو سني دراسته لعدم تأكيدنا من أحداث ذلك الزمن كله ، ثم لعدم وضوح معالم شخصيته أثناءه ، وعدم نضوجها النضوج الكافي .

وربما كانت إقامة ديكارت الأولى بهولندا بين عامي ١٦١٨ و ١٦١٩ مناسبة أولى لظهور تلك الشخصية في شيء من الوضوح . وقد ذكرنا كلماته في سنة ١٦١٩ لصديقه اسحق بيكمان : إن هذا الأخير هو الذي « أيقظه من خموله وأعاد إلى نفسه علماً كاد ينمحي »^(١) .

كان العلم الديكارتي أشبه بسلاح ذى حدين : ديكارت حذر من علم ملقن ، ولكنه راغب في نفس الوقت في التعلم ، متخوف من الفشل ، عازم على المضي إلى الأمام . ولذلك كانت أحلامه في نوفمبر سنة ١٦١٩ مناسبة لانتقاله من مرحلة الحيرة إلى مرحلة الثقة، وعلامة هذه الثقة ، في البداية على على الأقل ، حماسة بالغة . ولكنها ليست حماسة مذهول أمام أمر عجيب بل بل حماسة رجل واثق في قدرته على الفهم والعمل .

ولعل هذه القدرة ، وهي صادرة عن قوة أصيلة في النفس ، طابع الرجل في حياته ، وأفعاله كلها ، وفي استجاباته كلها للأحداث ، وفي تأليفه وتفكيره الفلسفي أيضاً .

ومظاهر القوة عند ديكارت غير صريحة ، غير مباشرة في بعض الأحيان ، مثل لباقته وسياسته مع من يعترف بقدرته ويريد مع ذلك الاستفادة منه كعاملته لفيرماه Fermat^(٢) العلامة الرياضي الفرنسي ؛ وكعاملته لليسوعيين بنوع خاص . فهو يمتدح هؤلاء إذا اقتربوا منه في رفق ، ولا يهاجمهم إذا هاجموه أو خالفوه ،

(١) أ. ت. المجلد العاشر ص ٤٦

(٢) قارن بين خطابات ديكارت عنه في عامي ١٦٣٧ ، ١٦٣٨ (ل. ٧٥٩ - ٧٧٥) وخطابه إلى فيرماء نفسه في ١٦٣٨/٧/٢٧ وفي ١٦٣٨/١٠/١١ (ل. ٧٩٣ ، ٨١٦) - راجع في فيرماء كتابنا عن إسكال ص ٣٢ - ص ٣٥ .

ولا يتجاهلهم بأى حال من الأحوال . إنما يدافع عن نفسه ويدعو خصومه إلى الالتقاء به والمناظرة معه إن كان فى ذلك فرصة للدعاية لعلمه وفلسفته^(١) .

ومن المظاهر غير المباشرة لتلك القوة إرادة العزلة : اعتزل ديكرت فرنسا تجنباً للزيارات والاجتماعات وحباً فى الدعة والطمأنينة . ثم غالى بعد ذلك فى إخفاء مقره إلى حد أن مراسليه كانوا يبعثون خطاباتهم لشخص يذهب ديكرت لتسلمها عنده . وكان ينتقل فى عزلته الهولندية من منزل إلى منزل ومن مدينة إلى مدينة حتى لا يطغى على حياته معارفه أو جيرانه . — وقد رجا صديقه مرسين ألا يرسل إليه من خطابات الذم والنقد إلا تلك التى يرضى صاحبها نشرها مع رده عليها . كان حذراً منذ عهد بعيد ، ولباقة وعزلته مظهرها ذلك الحذر ، ولكنهما أيضاً مظهرها قوته وأسلوبه فى الاتصال بالناس والإفادة منهم دون التضحية بوقته وطمأنينته .

ولعل حب العزلة من المظاهر الدائمة فى شخصيته وحياته كلها . فقد تعلم فى المدرسة مع الرفاق ، إنما كان ينام منفرداً فى غرفته ويبقى فيها طويلاً مكباً على تأملاته . — ثم إنه ليضمن لنفسه ومشروعاته النجاح اختلى إلى غرفة وسط الغابات لا تضىء حياته فيها إلا مدفأته وأحلامه . وقد فضل منذ الصغر التعلم من نفسه على التعلم من غيره^(٢) . والتفكير بوجه عام على المطالعة والحديث والتأليف . واعترف مرة فى حياته بأن الكلام والكتابة سخرة كم كان يود التحرر منهما . وافترض أن القروء أحكم الكائنات لو صح اعتقاد المتوحشين فيهم أنهم يمسون عن الكلام حتى لا يرغموا على العمل طول الوقت^(٣) .

(١) راجع فى هذا الموضوع مجموعة رسائل ديكرت (طبعة أ . - م المجلد الرابع والخامس الرسائل ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥١ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٣٢٠ ، ٣٣٠ وأخرى كثيرة) .

(٢) راجع القاعدة العاشرة فى كتابه « القواعد لتوجيه العقل » ل . ٣٧ وقد ترجمناها فى نهاية كتابنا ص ١٧٥ .

(٣) راجع خطابه إلى شانفو فى ١١/١/١٦٤٦ ل . ١٠٠٦ - ١٠٠٧ .

وإذا كانت عزلة ديكارت مظهراً لقوته فهمنا أن تجاوز قوته حدود الحيطة والحذر في بعض الأحيان . فالقوة الأصل، والحذر والعزلة واللباقة والسياسة مظاهر فرعية . ولذلك كانت مظاهر القوة الديكارتية صريحة في الغالب . وتتخذ القوة مظاهر المجزوم والعدوان . وقد رأيناه واقفاً شاهراً سيفه على بحارة المركب يريدون سلبه وقتله . ونراه في مناسبات عدة مستعداً للفتك بخصوصه في العلم عند ما يحاولون انتقاصه من ورائه أو التنديد علناً بشخصه أو آرائه^(١) . وقد كتب ديكارت إلى مرسين بعض خطابات بالغة في الشدة والعنف يعبر فيها عن رأيه في روبرفال Roberval الرياضي الفرنسي المعاصر ويرجو فيها مرسين ألا يذكر له اسمه^(٢) .

ولكن إذا كان للقوة السبق في حياته فهي لم تقف عند مظاهر العدوان كما لم تقف عند مظاهر العزلة . ورسائله العديدة التي تملأ مجلدات أعظم دليل على إرادته التعويض عن عادات العزلة وما ينجم عنها من مضار . وقيل أنه كان يكتب الرسائل دون توقف أثناء ساعات الليل المتعاقبة لا يوقف قلمه إلا النوم وحده .

وفي خطابهاته وخاصة في تلك التي كتبها في السنوات الخمس الأخيرة من حياته أكثر من علامة على هذا التعويض . بل فيها ما يفوق التعويض، فيها معاني الصداقة الحقيقية التي كان يكتنحها لبعض الناس أمثال شانرو والأميرة اليبسابات .

وقد خيل لبعض مراسليه أنه خال من الانفعالات والعواطف . فكان رد ديكارت أن الانفعال في نظره نافع ضروري ، وأنه إذا كانت بعض الانفعالات مصدر اضطراب كان بعضها مصدر قوة . ولا شك في أن الغضب مضر بالنفس وفي أنه

(١) راجع خطاب إلى هويجنز في ١٦٤٠/١/٣ رقم ٢٢٨ من المجموعة الكاملة لرسائله

(١) - م المجلد الرابع ٢ - ٥)

(٢) خطاب إلى مرسين في ١٦٤٦/١٠/١٢ (ل . ١٠٠١ - ١٠٠٣) .

لا بد من الاستعاضة عنه بالاستنكار ^(١) . كذلك كانت الكراهية في آثارها السيئة، وكذلك كان الحب لأنه يبعث المحباً على بغض جميع الأشياء ما عدا المحبوب ، ولأنه يطغى على حياة المحب وعالمه ويفقده القدرة على الحكم والتمييز بين الأشياء ^(٢) .

إلا أن هناك عدا هذا الحب الانفعالي المندفَع عاطفة حب نحو الغير لا أنانية فيها . هذا هو الحب الذى شعر به ديكارت نحو أصدقاء مثل شانو ونحو الأميرة الیصابات بنوع خاص . وقد كان اتصاله بالأميرة فاتحة مرحلة جديدة في حياته ومصدر إلهام فلسفى جديد . فكانت الأميرة تقص عليه في صدق وإخلاص أحزانها وآلامها وتأثير الأشياء فيها . فوجد في دراسته لتلك الأحوال وفي البحث عن وسائل التحرر منها مبعثاً للطمأنينة في نفسه وفي نفوس الغير . ويتم تحرر النفس من الانفعال السيئ بواسطة قوة النفس الأصلية . ولتلك القوة لغتها وعلاماتها العاطفية الانفعالية ؛ والفرح والأمل والاستبشار من أهمها ^(٣) . وهذه بمثابة أصوات تسمعها النفس فتقبل على توقع الأحداث ومجابهتها على النحو المناسب .

وقد شبه نفسه بسقراط واعترف بأنه أنصت مرات ألى تلك الأصوات في نفسه وبأنه لاحظ إخفاقه في بعض المناسبات لإهماله العمل حسب إلهامها ^(٤) وكان يوجس شراً من مشروع سفره الأخير إلى بلاد السويد حيث مات ^(٥) . إلا أنه كان حكيماً بأعمق معانى الحكمة . فصوت واحد لم يكفه . وفي النفس

(١) خطاب إلى شانو في ١٦٤٦/١١/١ ل . ١٠٠٩ .

(٢) خطاب إلى شانو في ١٦٤٧/٢/١ ل . ١٠٢٧ - ١٠٢٨ .

(٣) خطاب إلى الیصابات في نوفمبر سنة ١٦٤٦ ل . ١٠٠٣ - ١٠٠٤ .

(٤) خطاب إلى الیصابات في نوفمبر سنة ١٦٤٦ ل . ١٠٠٣ - ١٠٠٤ .

(٥) خطاب إلى شانو في ١٦٤٩/٣/٣١ ل . ١٠٧٣ - ١٠٧٥ ؛ وخطاب إلى براسيه

في ١٦٤٩/٤/٢٣ ل . ١٠٧٧ .

علامات عديدة متباينة على واجباتها . وينبغي تغليب بعض تلك العلامات على البعض الآخر . وفي حالة رحلته إلى السويد التي أودت بحياته والتي أوجس منها شراً ما، كان يرجو أيضاً نفعاً عظيماً قد يصيبه من تلك الزيارة، نفعاً يناله الغير بتعلم المنهج والفلسفة الحقيقية على يديه، ونفعاً يناله هو شخصياً مما ينجم عن تلك الزيارة من رعاية وترويج لمذهبه ومنهجه . وما دام في الأمر آمال ومنافع وخيرات لنفسه ولغيره وهي كلها علامات للنفس القوية فلا محل للتردد في القيام بتلك الرحلة . ومهما كان من توقعه الشر من هذه الرحلة أو تلك فهو لا يخاف شيئاً . وهو لا يخشى الموت بنوع خاص بل يحب الحياة وما تجيء به من خيرات^(١) .
وحب الحياة والخوف أمران لا يجتمعان .

مراحل التأليف :

إن نظرنا إلى تاريخ التأليف الديكارتي لاحظنا أولاً أنه ينقسم انقساماً طبيعياً إلى مراحل ثلاث أو أربع متباينة زمنياً وموضوعاً ؛ ولاحظنا ثانياً أن التمييز الزمني بين المراحل المذكورة مرتبط بأحداث هامة في حياة ديكارت الفكرية وغير الفكرية ؛ ثم لاحظنا أمراً ثالثاً غاية في الأهمية وهو اختلاف في الأسلوب واختلاف في لغة التعبير ، لاتينية كانت أو فرنسية .

لنلخص تأليف ديكارت في ضوء هذه الملاحظات الثلاث :

هناك مرحلة افتتاحية أو تمهيدية لا يلزم اعتبارها مرحلة تأليف بالمعنى الضيق لأن ديكارت لم يقصد أثناءها نشر أى كتاب . وهى تلك التي عاصرت أحلامه ومشروعاته الأولى في عامي ١٦١٨ و ١٦١٩ عندما التقى ببيكمان في هولندا وعندما اختلى إلى نفسه في ألمانيا . وكانت مظاهر التأليف فيها بعض مخطوطات في المسائل العلمية التي اعترزم البحث فيها ومخطوطات أخرى تعبر

(١) خطاب إلى مزين في ١٦٣٩/١/٩ ل . ٨١٨ .

عن أحواله النفسية وآماله الفلسفية . وأهم مخطوطات هذه المرحلة « ملخص الموسيقى » *Musicae Compendium* ثم « الأوليات » *Olympica* ثم « الخواطر الفردية » *Cogitationes Privatae* كما سماها ليبنتز . وجميع هذه المخطوطات باللاتينية ويغلب على أسلوبها طابعا الحماسة والغموض ، وذلك فيما عدا المخطوطات العلمية البحتة^(١) .

وتلت تلك المرحلة الافتتاحية مراحل رئيسية ثلاث :

الأولى — وهى مرحلة المنهج والعلوم : لم تبدأ فعلا إلا بعد اجتماعات ديكارت بالكردينال در بيرون في عام ١٦٢٧ وعزمه من ذلك الوقت على التقدم في مشروعاته العلمية من ناحية ، وإنشاء فلسفة تتفق والدين وتؤسس العلم من ناحية أخرى . وأول مؤلفات هذه المرحلة كتاب «القواعد لتوجيه العقل» *Regulae ad directionem Ingenii*^(٢) باللاتينية ، وهو كتاب ديكارت الرئيسى في المنهج ألفه في عام ١٦٢٨ ولم ينته منه ولم ينشره . وأخر مؤلفات هذه الفترة « المقال عن المنهج » *Discours de la Méthode*^(٣) مع الكتب العلمية الثلاثة في « انكسار الضوء » *Dioptrique* و « الآثار العلوية » *Météores* و « الهندسة » *Géométrie*^(٤) كُتبت بالفرنسية ونشرت كلها في عام ١٦٣٧ وجميعها في المنهج والعلوم ما عدا صفحات فلسفية بحتة في « المقال عن المنهج » . ويمتاز أسلوبها لا سيما أسلوب « المقال » بالوضوح ، بوضوح المعاني وبوضوح النظام بوجه خاص . أسلوب هو مرآة لقدرة الرجل على تأليف آرائه فيما بينها

(١) انظر في هذه المخطوطات المختلفة المؤلفات الكاملة لديكارت طبعة أدام وتانرى (أ. - ت) المجلد العاشر : ٧٩ - ١٤١ ؛ ١٨٠ - ١٨٨ ؛ ٢١٣ - ٢٤٨ .
 (٢) انظر المؤلفات الكاملة أ. - ت المجلد العاشر ٣٥٩ - ٣٦٨ .
 (٣) انظر المؤلفات الكاملة أ. - ت المجلد السادس ١ - ٧٨ .
 (٤) انظر المؤلفات الكاملة لديكارت (أ. - ت) المجلد السادس ٧٩ - ٣٨٤ .

وتنظيمها والتعبير عنها في جمل تطول في بعض الأحيان ولكنها تترابط على نحو تترابط الأفكار ذاتها .

وتخللت مرحلة التأليف هذه التي بدأت في عام ١٦٢٨ وانتهت في عام ١٦٣٧ بحوث ديكارت العلمية الرئيسية الممهدة للكتب العلمية المذكورة . ولكن أهم عمل قام به في تلك الفترة تأليفه كتاب « العالم » بالفرنسية في جزئيه الرئيسيين وهما « الضوء » و « الإنسان »^(١) . وكاد ينتهي في هذه الفترة من الجزء الأول^(٢) . ولكنه توقف عن نشره لارتباطه بمسألة دوران الأرض التي أدانت الكنيسة آراء جاليليو فيها . أما أسلوب كتاب « العالم » فهو المثال الأعلى في تأليفه العلمي كله .

وقد كتب ديكارت في هذه المرحلة عدة خطابات في العلم وفي التجارب العلمية التي قام بها . ثم خطابات فلسفية ثلاثة غاية في الأهمية في مسألة أساس الحقائق العلمية وخلق الله لها^(٣) .

والمرحلة الثانية التي تلت مباشرة نشر « المقال عن المنهج » هي مرحلة التأليف الفلسفي البحت . تفرغ أثناءها ديكارت لمعالجة للموضوعات الفلسفية المختلفة وذلك أولا في محاولته الرد على أسئلة قراء « المقال عن المنهج » وخاصة قراء الصفحات الفلسفية في المقال . وتقدم ديكارت في بحثه كلما تقدم به الزمن وكلما اشتدت وطأة الأحداث على نفسه ، بعد مهاجمة الخصوم لنظرياته ، وبعد وفاة أعز الناس لديه ، بنته أولا ثم أبيه بعد ذلك بمدة قصيرة . وكان ديكارت من نهاية عام ١٦٣٨ قد اعتزل في مكان ما بشمال هولندا وبقي في تلك العزلة مالا يقل عن سنتين . عالج أثناءها مسائل اليقين ، الوجود في طبيعته وأصله ومصيره .

(١) انظر المؤلفات الكاملة لديكارت (أ. - ت) المجلد الحادى عشر ١ - ٢٠٩ .

(٢) ثم رجع إلى الجزء الخاص بالإنسان فيما بعد ولكنه لم ينشره أثناء حياته .

(٣) وأرسلها إلى صديقه مرسين في ١٥ أبريل وفي ٦ مايو وفي ٢٧ مايو سنة ١٦٣٠ . وقد

نشرت في المجلد الأول من مجموعة رسائل ديكارت ١٢٩ - ١٤٣ .

فأصدر في عام ١٦٤١ ثم في عام ١٦٤٢ كتاب « التأملات في الفلسفة الأولى »^(١) باللغة اللاتينية مع اعتراضات بعض كبار العلماء عليها وردود ديكارت على تلك الاعتراضات . وإن كان يغلب على هذه الردود الأسلوب الفلسفي الجاف امتاز أسلوب « التأملات » ذاتها بصفات شخصية بارزة ؛ ويكاد يلمس فيها القارئ حديث ديكارت إلى نفسه ومناقشته المتصلة لآرائه ولما تثيره تلك الآراء من اعتراضات .

ومن المحتمل جداً أن ديكارت ألف بين نهاية عام ١٦٤١ وأوائل ١٦٤٢ المحاورة الفلسفية التي ظهرت بعد وفاته تحت عنوان « البحث عن الحقيقة بواسطة النور الطبيعي »^(٢) يعبر فيها عن بعض نظرياته في « التأملات » تعبيراً مبسطاً مسهباً .

وامتازت المرحلة الثالثة والأخيرة من تأليف ديكارت وهي مرحلة الفلسفة الأخلاقية برسائل ديكارت بين عام ١٦٤٣ وعام ١٦٤٩ إلى الأميرة اليسانبات في مشكلة اتحاد النفس بالبدن وفي مشكلات الانفعال وضبط النفس ، ثم في الخير الأسمى والسعادة . ونشر ديكارت في عام ١٦٤٤ كتاب « مبادئ الفلسفة »^(٣) باللغة اللاتينية في أجزاء أربعة : الأول في مبادئ المعرفة ، والثاني في مبادئ الأشياء المادية ، والثالث في العالم المنظور ، والرابع في الأرض . عبر فيه

(١) ظهرت « التأملات » في طبعها الأول بباريس في عام ١٦٤١ تحت عنوان : « تأملات في الفلسفة الأولى يبرهن فيها على وجود الله وخلود النفس » . وظهرت في طبعها الثانية باستردام في عام ١٦٤٢ تحت عنوان : « تأملات في الفلسفة الأولى يبرهن فيها على وجود الله ، والتمييز بين النفس والبدن » . ونجد الأصول اللاتينية للتأملات والاعترافات والاجابات عليها في المجلد السابع من مؤلفات ديكارت الكاملة (أ. - ت) ، والترجمة الفرنسية في المجلد التاسع .

(٢) انظر هذا النص في أ - ت المجلد العاشر ٤٨٩ - ٥٢٧ وترجمته في طبعة لايبزاد

٦٦٨ - ٦٩٠

(٣) ونشر الأصل اللاتيني للمبادئ في المجلد الثامن (أ. - ت) والترجمة الفرنسية في المجلد

التاسع .

ديكارت عن آرائه الفلسفية والعلمية كما نجدها في « التأملات » وفي كتاب « العالم » ، وذلك في صيغة فقرات متتالية موجزة . ولكنه أضاف معاني جديدة وفصل معاني سابقة تفصيلاً طريفاً، محاولاً صياغة الكل في أسلوب يناسب التعليم في مدارس وجامعات ذلك الوقت . وفي هذا الكتاب عمل ديكارت على بيان موقفه من الحرية الإنسانية^(١) بكيفية أكثر صراحة ووضوحاً مما عمل في « التأملات » ودرس طبيعة الجوهر وما يتبع الجوهر من صفات وخصائص ومن تميزات بين الجوهر وصفاته وخصائصه وبين هذه فيما بينها ؛ وأظهر في وضوح تام معنى الجوهر المادى وتمايظه عن صفاته وخصائصه^(٢) . وعنى ديكارت أخيراً في الجزء الرابع من « المبادئ » بالكشف عن منزلة التجربة والمنهج التجريبي من العلوم الطبيعية وعن طبيعة اليقين الخاص بهذا المنهج وبذلك العلوم في نواحيها التجريبية الواقعية^(٣) .

ونشر ديكارت في عام ١٦٤٩ أى سنة واحدة قبل وفاته كتاب « انفعالات النفس » باللغة الفرنسية وكان قد شرع في تأليفه منذ عام ١٦٤٦ لغاية أهدائه إلى الأميرة اليصابات التي شرع يرسلها في الموضوعات الأخلاقية منذ عام ١٦٤٣ واستمر في الكتابة لها حتى عام ١٦٤٩ . وفي تلك السنوات أيضاً كتب ديكارت في الموضوعات الأخلاقية إلى صديقة شانو الذي أصبح فيما بعد سفير فرنسا لدى الملكة كريستينا ملكة السويد ؛ ثم كتب إلى تلك الملكة نفسها^(٤) . وجميع هذه الخطابات باللغة الفرنسية . وأسلوب هذه الخطابات رائع حقاً، صورة لتفكير ديكارت وشخصيته وعلاقاته مع الغير . وسواء لما احتوته تلك الخطابات من نفحات إلهام أو نكات طريفة فهي أصدق تعبير عن القوة التي رأينا فيها طابع ديكارت الرئيسي .

(١) « مبادئ الفلسفة » الجزء الأول : الفقرات من ٣٧ - ٤١ .

(٢) « مبادئ الفلسفة » الجزء الأول : فقرات ٥٠ - ٦٥ .

(٣) « مبادئ الفلسفة » الجزء الرابع : فقرات ٢٠٣ - ٢٠٦ .

(٤) وقد جمع جاك شغالييه هذه الخطابات كلها في كتاب واحد تحت عنوان « خطابات

في الأخلاق Lettres sur la Morale ونشره في باريس عام ١٩٣٧ .